

زعماء الفن

مدد وصيت وأنا. لجمع بين الواقع السياسي والواقع الفني داخل ميزان واحد .. لقيس كليهما بنفس المقاييس . واطبق عليهما نفس القانون .. ولا أفرق بينهما في المسئولية الوطنية والتضحية . حتى على مستوى الزعامة .. الزعامة السياسية . والزعامة الفنية .. وكنت أقيس الإغنية الوطنية بنفس مقاييس الخطاب السياسي . وليس الإغنية العاطفية بنفس مقياس مشروعات التصدير . أي كنت اعتبرها بناء في التعبير الروحي للشعب .. وهكذا كنت أقيس أم كلثوم ..

كنت أقيسها كعنصر أساسي في تطور الحركة الوطنية . وفي تطور الحضارة المصرية . وفي التعبير الروحي الشعبي .. وقد سبق أن كتبت منذ سنوات طويلة وأنا أتعرض للزعامة السياسية والزعامة الفنية . كتبت أن الفرق بين مصطفى النحاس وأم كلثوم . هو أن عدد أتباع أم كلثوم أكبر . فثأثيرها الشعبي أكبر ..

والفن كالتاريخ . يقسم تاريخيا إلى مراحل تنسب إلى التغيرات .. فالتاريخ السياسي الحديث ينقسم إلى مرحلة عرابي . ومرحلة مصطفى كامل . ومرحلة سعد زغلول . ومرحلة جمال عبد الناصر .. والتاريخ الفني الحديث - من زاوية الفن للفن - ينقسم إلى مرحلة الشيخ سلامة هجازي . ومرحلة سيد درويش . ومرحلة منيرة المهدية . ومرحلة أم كلثوم .. أمه الله في هرمرحلة بعد عبد الوهاب ..

وهي تصل إلى التعبير الكامل الصحيح . فإن كل مرحلة يجب أن تقاس بالمرحلة التي سبقتها . حتى نحدد درجات التطور والتقدم الفني الذي يرتبط بالتطور والتقدم الحضاري والشعبي .. ولأنك إن مرحلة أم كلثوم قد قامت ببناء حضاريا كاملا جديدا بعد مرحلة منيرة المهدية . واستطاعت في هذه المرحلة أن تجسم مسئولية الفن كسلاح وطني . وأن تتطور به تطور أسلحة الجيوش . وخصوصا العبران .. وفي الحد الكتابات الوطنية التي مرت في هذه المرحلة كالتة أم كلثوم عنصرا أساسيا من عناصر الاحتمال . وعناصر الأمل . وفي المقام القدرات التي مرت بالاحساس العربي . وفكرت للشعوب العربية بعضها عن بعض . كانت أم كلثوم هي قيس الدور الوحيد الذي يرى العرب على شوية بعضهم بعضا ..

وكل مرحلة - سواء في التاريخ السياسي أو الفني - لا يمكن أن تتكرر .. لا يمكن أن تتكرر مرحلة عرابي . أو سعد زغلول . أو عبد الناصر . كذلك لا يمكن أن تتكرر مرحلة أم كلثوم . إنما هي مرحلة تصبح مجرد ترميز تاريخي . كمرحلة الأوبرا القنبية - الكلاسيك - في الموسيقى الغربية . أصبحت ترمز كالتاريخ تاريخي . وعندما تلف إحدى مغنيات الأوبرا لفنني إنما تطلق إلى الماضي وتأخذك من الحاضر ومن المستقبل .. وهذا ما سيحدث بعد فترة على ذهاب أم كلثوم . نكل من يقنى إغانيها ينقله إلى الماضي . ويصبح الأمل هو أن تنتقل من مرحلة أم كلثوم إلى مرحلة جديدة متطورة لها نفس قيمتها ونفس تأثيرها الشعبي . كما انتقلت مرحلة الأوبرا إلى مرحلة الاستعراض المسرحي .. وهذا هو الصعب .. هذا / الأمل القبيح ..

و إلى أكتب وأنا اضبط على عراطفى عطفا على مطلق العقل .. وعقلي نظما وعاش في بيت يستقبل زعماء الفن على نفس المقاعد التي يستقبل عليها زعماء السياسة .. كلهم زعماء وظليون .. أما عراطفى فقد تطلعت العصر كله بشعاع من الدور كان يمنحها الراحة . والأمل والقدرة على احتمال الصعب .. نور أم كلثوم ■

